

المحور الثالث

أهمية الوقف في التعليم وخدمة البحث العلمي

البحوث والباحثين:

- **تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها.**

لفضيلة الدكتور/ ناصر بن سعد الرشيد.

- **الوقف والبحث العلمي كاستثمار.**

لفضيلة الدكتور/ محسن بن علي فارس الحازمي.

- **الإيمان واهتمام الوقف بالعلم والتعليم.**

لفضيلة الدكتور/ أحمد بن محمد المغربي.

- **الوقف في خدمة البحث العلمي.**

لفضيلة الدكتور/ ناصر بن إبراهيم التوييم.

صفحة رقم (478)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة



————— تسيير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها ———

تسيير البحث العلمي
في خدمة الأوقاف وتطويرها

إعداد

فضيلة الدكتور/ ناصر بن سعد الرشيد

صفحة رقم (480)

فاضي

توضع في ظهر الصفحة السابقة

F

تسخير البحث العلمي

في خدمة الأوقاف وتطويرها

————— تسيير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها ————

مقدمة :

اهتم المسلمون بالوقف قديماً وحديثاً وأولوه عنابة فائقة في العمل به وفي تشرعياته وأحكامه وأقسامه والتصرف فيه، ذلك أن الوقف يعتبر في عداد الأعمال الصالحة والصدقة الجارية التي حث عليها الإسلام ورغم في عملها فكان من مجالات التسارع إلى الخير والتسابق إلى البر ابتغاء فضل الله ومرضاته، ورجاء عظيم ثوابه وواسع رحمته، واقتداء بالنبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، فلقد أثر عنهم جميعاً أنهم حبسوا شيئاً في سبيل الله استباقاً إلى الخير وعملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُنْهَا كُلُّ نَسْكٍ عَنِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 92]

وقوله سبحانه: ﴿أَلَا يَرَى أَنَّمَا يَنْهَا كُلُّ نَسْكٍ عَنِ الْمُحْسِنِينَ﴾
[المزمول: 20].

وبلغ من التنافس فيه وكثرة موقوفات السلف الصالح أن حسب من مبتكرات التشريع الإسلامي الذي لم يسبق إليه، اصطلاحاً وتشريعاً، وأنه لا يعرف له نظير في الجاهلية، ويستشهدون على ذلك بقول الشافعيـ: «الوقف من الأمور التي اختص بها الإسلام، ولم يبلغني

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

أن الجاهلية وقفوا داراً أو أرضاً» ونقله في الفتح مرة وأقره. قال: «ولَا نعرف أن ذلك وقع في الجاهلية»^(خ)، وقال ابن حزم: ^(بر)«إن العرب لم تعرف في جاهليتها الحبس»، وقال بن رشد في المقدمات: ^(تر)«لا يُعرف جاهلي حبس داره على ولده أو في وجه من الوجوه المتقرب بها إلى الله تعالى، وإنما فعلت الجاهلية البحيرة والسائلة والوصيلة والحمامي، ولعل هؤلاء الأئمة إنما يقصدون الوقف الذي يكون غرضه البر والمعروف لوجه الله ولذات الخير والإحسان وإنما العجب في الجاهلية، شأنهم في ذلك شأن الأمم قبلهم كانت تعرف الوقف لقول شريح الذي لا يرى شرعية الوقف: جاء محمد ^(أ)بن معن الحبس» لكن هدفه كان ينفي التباهي والتفاخر، وهذا هو الفرق بين الوقف في الجاهلية والوقف في الإسلام ^(بر)كما يرى الشيخ الطاهر ابن عاشور أن «الوقف غير موجود أيضاً في شريعة التوراة ولا في المسيحية». ^(سم)

(خ) أحكام الهدایة الإسلامية، الجزء الرابع ، المجلد التاسع، شوال: 1355هـ ص 249.

(بر) المحلى / 275/9.

(تر) من: الوقف وآثاره في الإسلام: مجلة الإسلامية، الجزء الرابع ، المجلد.

(بر) شرح منح الجليل: 35/3 عن / الوقف في الفكر الإسلامي: 1/79. التاسع شوال: 1355ص 248

(سم) مجلة الهدایة الإسلامية، الجزء الرابع ، المجلد التاسع، شوال: 1355هـ ص 249..

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

و سواء عرف الوقف قبل الإسلام أم لم يعرف فإن العمدة على المقصد، وهو ما اختلف فيه الإسلام عن غيره من التشريعات أو النظم، وتحقيقاً لمقصد الإسلام النبيل من الأوقاف وهو الأجر في الآخرة والنفع في الدنيا فقد أكثر منه المسلمون رعاية ورعايا، كل بحسب شرط وقفه، وحسبنا قول جابر بن عبد الله < : «لم يكن من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف» (خ).

ومن آراد التزود فعليه ببحث الدكتور عبد الله بن محمد الحجيلي المعنون: «الأوقاف النبوية ووقفيات بعض الصحابة الكرام» (بر).

(خ) المغني: 599/5

(بر) هذا البحث ألقى في ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية في المدينة المنورة من 25-27 محرم 1420هـ.

تعريف الوقف:

الوقف في اللغة: الحبس والمنع، ومنه وقفت الدابة إذا حبستها على مكانها، ووقفت الدار إذا حبستها^(خ)، ولذلك نجد أن كلمة "حبس" تنوب عن الكلمة "وقف" في بعض كتب الفقه^(بر).

وأحسب أن "وزير الأحباس" بمعنى "وزير الأوقاف" في المغرب العربي جاءته التسمية من هذا المعنى^(تر)، وقد عنون ابن عبد البر لباب الوقف "كتاب الأحباس"^(بر). أما في الاصطلاح الشرعي فتعريفاته كثيرة تتسع أحياناً وتضيق أحياناً آخر تبذعاً لتصور الفقهاء للوقف وما يندرج تحته من أحكام، فقد عرفه السرخسي بأنه: "حبس الملوك عند التمليلك من الغير"^(سم)، كما عرفه ابن عبد البر المالكي بأنه "أن يتصدق الإنسان المالك لأمره بما شاء من ريعه ونخله وكرمه وسائر عقاره لتجري غلّات ذلك وخراجه ومنافعه في السبيل الذي سبلها فيه مما يقرب إلى الله عز

(خ) انظر "وقف" في المصباح 346/2، تهذيب الأسماء واللغات: 194/4 الصحاح: 1440/4، المغرب: 491، تحرير ألفاظ التنبيه: 237..

(بر) الوقف: مفهومه ومقاصده: 04

(تر) الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي: 135.

(بر) الكافي: 1012/2.

(سم) المبسوط: 27/12

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

وجل ، ويكون الأصل موقوفاً لا يباع ولا يوهب ولا يورث أبداً ما بقي شيء منه ، فمن فعل هذا لزمه ولم يجز له الرجوع فيه في حياته ولا يورث عنه إذا حيز وصحت حيازته^(خ) ، ويعرفه الإمام النووي ~ تعالى بأنه : " حبس مالٍ يكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته وتصرف منافعه إلى البر تقرباً إلى الله تعالى "^(بر) ، أما ابن قدامة المقدسي فيعرفه بأنه " تحبس الأصل وتسبيل الشمرة "^(تر) أو " تسبيل المنفعة "^(ير) ومن دقيق في هذه التعريفات التي تعكس تصور أصحاب المذاهب الأربع للوقف وجد أن تعريف ابن عبد البر المالكي أوفاها وأشملها.

مقاصد الوقف :

إن الشريعة الإسلامية مصلحة كلها جاءت لتحقيق مصالح العباد في الدنيا والآخرة ، ولا شك أن وقف المال أو الملك مما يحقق مصالح للميت وللحيّ ، ذلك أن الوقف يعدّ من القربات المتعددة التي تتعدي منفعتها إلى غير صاحبها ، والقربة المتعددة خير من القربة التي لا يتعدى

(خ) الكافي: 1012/2.

(بر) تهذيب الأسماء واللغات: 194/4.

(تر) المغني: 597/5.

(ير) المقنع: 307/2.

_____ تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها _____

نفعها صاحبها، ولقد حمل بعض العلماء الصدقة الجارية التي ورد ذكرها والترغيب بها في الحديث الشريف: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوه" (خ) حملوها على الوقف (بر).

كما يهدف الوقف -في مقاصده- إلى الإحسان والكرم والبر، فقدم الوقف إلى المعوزين وطلبه العلم وبناء المساجد والمستشفيات وغير ذلك.

وأحسب أن من مقاصد الوقف الهمة: بقاء الأموال ودوام الانتفاع بها والاستفادة منها مدة طويلة، وذلك بإستمرار "النفع العائد من المال المحبس فالأجر والثواب مستمر للواقف حياً أو ميتاً، ومستمر النفع للموقوف عليه، والانتفاع منه متجدد على مدى الأزمنة" (تر)، كما أن في الوقف حماية للمال من التصرف السيء فيه كالإسراف والتبذير وصرفه في غير ما وضع له ذلك أن اختصاص المالك بما يملكه وتصرفه فيه بوجوه التصرف المعتبر عنه بحرمة التصرف أصل طبيعي كما أنه أصل

(خ) صحيح مسلم: 1255/3، سنن الترمذى: 418/2، سنن أبي داود: 117/3، المسند: 372/2

(بر) شرح النووي على مسلم: 84/11، تحفة الأحوذى 628/4

(تر) الوقف مفهومه ومقاصده: 20

شرعي أيضاً، لكن الشرعية قيدت هذا التصرف بقيود ضابطة ترجع أصلًا إلى حفظ مقاصد الشريعة في الأمة^(خ): "إما لدرء مفسده عامّة مثل معاملة الربا، أو مضرّة خاصة كما حجر الإسلام على السفيه مباشرة التصرف لدفع مفسدة الإسراف الذي يجعل صاحب المال في أضرار جمة، وفيما عدا تلك التقييدات المعلومة أبّقت الشريعة التصرفات الملكية على احترامها أو حرفيتها، ولذلك كان من آخر أقوال الرسول عليه السلام في خطبة الوداع: "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام"، ومن أكبر مقاصد الشريعة في الأموال تيسير دورانها على آحاد الأمة، وألا تكون في طائفة معينة يتلقاها الفرع عن أصله (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)، على أن الشريعة لم تنس رفقها بالناس فجعلت مال الحيّ بعد موته صائراً إلى أقرب الناس إليه وذلك عن طريق الإرث، ولغيره أحياناً عن طريق الوصية والوقف، وهو بهذا يكون قد جمع بين انتفاع الأقارب وانتفاع الأمة من ماله.

ولقد لحظ العلامة الدھلوي هذا المقصود حين قال^(بر): "استنبطه النبي ﷺ لمصالح لا توجد في سائر الصدقات، فإن الإنسان ربا يصرف

(خ) الوقف وأثاره في الإسلام: 246-248.
(بر) حجة الله البالغة: 2/116.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

في سبيل الله مالاً كثيراً ثم يفني ، فيحتاج أولئك الفقراء تارة أخرى ، وتجيء أقوام آخرون من الفقراء وأبناء السبيل يصرف عليهم منافعه ، ويبيقى أصله".

كما نستطيع أن نلحظ هدفاً اقتصادياً مهماً وهو تقليل الفروق بين ثروات العباد ، وتكامل نظم الزكاة والمواريث والوقف لتحقيق هذه الغاية (خ).

أنواع الوقف:

ينقسم الوقف إلى قسمين :

الأول: الوقف الخيري :

وقد عرّفه مجموعة من علماء المملكة في بيان لهم بأنه : "الوقف على جهات البر كالفقراء والمساكين والمساجد وما إلى ذلك" (ب) وهذا النوع عادة من الوقف «يستهدف تحقيق مصلحة عامة كالوقف على المساجد ودور العلم وعلى العلماء والفقراء والمستشفيات ويسمى هذا النوع من الوقف أيضاً بالوقف المؤيد أو المطلق لكون مصروفه دائماً في

(خ) مجلة الاقتصاد الإسلامي : العدد 170 السنة الخامسة عشرة ، محرم 1416هـ
(ب) حكم الشريعة الإسلامية في الوقف الخيري والأهلي : بيان من العلماء ؛ 5 وانظر : الوقف مفهومه ومقاصده لأبي سليمان : 162/15.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

جميع أدواره عائداً على الجهة التي سماها الوقف في حدود الجواز الشرعي، وقيل: أن الوقف الخيري هو ما جعل ابتداءً على جهة من جهات البر، ولو لمدة معينة يكون بعدها على شخص أو أشخاص معينين فإذا وقف إنسان داره لينفق غلتها على الحاجين من أهل بلده كان الوقف خيرياً" (خ).

الثاني: الأهلبي:

"وهو ما جعل أول المر على معين سواء كان واحداً أو أكثر، وهو يستهدف مصلحة خاصة كالوقف على الذرية والأقارب ويسمى هذا النوع من الوقف بالوقف المؤقت، والتوقيت هنا وصف حقيقي للوقف، ويعني أنه إذا انتهى الأجل المضروب للوقف، أو مات الموقوف عليه أو عليهم انتهى الوقف بذلك وعاد الموقوف ملكاً للواقف إن كان حياً أو لوارثة وقت وفاته إن كان ميتاً" (بر)

هذا وقد اختلف العلماء في حكم هذا النوع من الوقف الذي اسماه البعض بالوقف "الذرري" طبقاً لتصورهم لهذا الوقف فمنهم من أجازه ومنهم من حرم بعض صوره، ومنهم من أبطله ورآه إثماً وجنفاً، ومن

(خ) أحكام الوقف على الذرية في الشريعة الإسلامية: 232/1

(بر) انظر أحكام الوقف على الذرية: 233/1، الوقف الأهلبي: 59، الوقف مفهومه ومقاصده: 15، 16.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

أبطله الشيخ محمد بن عبد الوهاب ~ في رسالته المطبوعة ضمن "روضة الأفهام" لابن غنام، ووصف هذا النوع بأنه من أعظم المنكرات وأكبر الكبائر لأنّه تغيير لشرع الله في أنصبه المواريث. (١)

الوقف والبحث العلمي :

لقد اسهم الوقف بشكل ملحوظ في نشر العلم تعلماً وتعليمياً وبحثاً، بل لقد كان وراء الإنجازات العلمية والحضارية التي شهدتها العالم الإسلامي في عصره الوسيط (٢)، جاء ذلك عن طريق مرافق التعليم والعلم التي كانت تغذى عن طريق الوقف الخيري، وأحسب أن من أهم هذه المرافق :

أولاً : المساجد :

كانت المساجد ولا تزال مركز إشعاع علمي ، حتى إن حلقات العلم في بعض المساجد كالمسجد النبوي مثلاً تقاد تنظيم كل فساطط فيه، يعلم فيها كبار العلماء كأنس بن مالك، وما مقولته المشهورة (٣) : لقد أدركت سبعين من يحدث : قال فلان قال رسول الله ﷺ عند هذه

(١) انظر الرسالة في : روضة الأفهام : 1/160.

(٢) الوقف الإسلامي والدور الذي لعبه في النمو الاجتماعي : 227

(٣) التمهيد : 1/67

الأساطين وأشار إلى مسجد رسول الله ﷺ إلا دليل واضح على كثرة العلماء والمعلمين في هذا المسجد، وما أظن أن علماً انتشر قبل إنشاء المدارس الرسمية إلا خرج من المساجد أولاً، فمسجد البصرة ومسجد الكوفة والمسجد الحرام ومسجد قرطبة والجامع الأموي ومسجد عمرو ابن العاص وغيرها كلها مراكز للعلم والتعليم، ولقد بلغ التقدم العلمي في بعض المساجد أنها أصبحت جامعات كجامعة قرطبة والجامع الأزهر وجامع القرويين وجامع الزيتونة وكانت الأوقاف الخيرية هي التي تشكل المورد المالي لهذه المساجد، وهناك بعض المدارس والكتاتيب التي كانت تلحق بالمساجد ويتم تمويلها بأموال الوقف فيذكر ابن حوقل في مدينة صقلية وحدها ثلاثة كتاب، وأن الكتاب الواحد يتسع للمئات أو الألوف من الطلبة^(خ).

وقد خصّصت أوقاف كثيرة على حلقات العلم في جامع عمرو بن العاص في مصر، منها: "زاوية الإمام الشافعي" < يقال إنه درس بها الشافعي فعرفت به، وعليها أرض بناحية سنبليس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء، ومنها الزاوية

(خ) المسالك والممالك: 126 وعبارته الصحيحة: "والغالب على البلد المعلمون والمكاتب، وبالبلد ما يقارب من ثلاثة معلم".

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

المجيدية بصدر الجامع فيما بين المحراب الكبير ومحراب الخمس داخل المصورة الوسطى بجوار المحراب الكبير رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبي المحسن مهلب بن حسن، ومنها الزاوية الصاحبية...، وأخبرني المقرئي الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن الحسن الأوحدي ~، قال: أخبرني العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الصائغ الحنفي: أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء الكائن في سنة تسع وأربعين وسبعيناً بضعاً وأربعين حلقة لقراء العلم لا تكاد تبرح منه" (٤). (٥).

ويعلق الدكتور يحيى الجنيد على هذا الخبر بقوله (٦): "وهذا الخبر يبين لنا نشاط الحركة التعليمية التي اتخذت من هذا الجامع مركزاً على مدى قرون، وكان الوقف أكبر معين لها في استمرارها وتواصيلها".

ويصف ابن بطوطة مسجداً آخر يمكن لنا أن نتخذه مثلاً للمسجد في الإسلام في دوره التعليمي وإسهامه العلمي وهو جامع الأمويين بدمشق، يقول (٧): "ولهذا المسجد حلقات التدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرئون كتب الحديث على كراسٍ مرتفعة، وقراءة القرآن

(٤) المواقع والاعتبار: 250/2.

(٥) الوقف وبنية المكتبة العربية: 21.

(٦) رحلة ابن بطوطة: 1/56.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية :

بالأصوات الحسنة صباحاً ومساءً، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى مساعديه من سواري المسجد يلقن الصبيان ويرئهم، وهم لا يكتبون القرآن على الألواح تزيهاً لكتاب الله تعالى، وإنما يقرئون القرآن تلقينا، ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأسعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب، وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره، ومن المدرسين بالمساجد المذكور العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشهرين بالفضل والصلاح". كما يذكر ابن بطوطة ميزانية هذا الجامع الوقفية مستغلات وجباية بأنها نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً في كل سنة^(خ).

ثانياً: المدارس :

انتشرت المدارس عبر العالم الإسلامي انتشاراً مذهلاً ملحقة بمسجد أو مستقلة عنه، وكان الوقف هو المورد الأساسي لهذه المدارس، بمعنى أن التعليم في العالم الإسلامي منذ إنشاء المدارس كان مديناً للوقف الذي يراه أصحابه من أعمال البر والإنفاق في سبيل الله حتى أن الدكتور يحيى جنيد الساعاتي عزا إلى أحد الباحثين "إن كل مؤسسات التعليم التي أنشئت كانت قائمة على أساس نظام الوقف"^(بر)، وأنه لو لا الوقف

(خ) نفس المصدر والجزء: 53.

(بر) الوقف والمجتمع: 22.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

وخصوصاً في العصر الممدوكي ما كان بالإمكان أن تقوم قائمة للمدارس كما يشير إلى ذلك أحد الباحثين الذي لم يكتف بهذا الرأي بل يرى أن اثر الوقف تعدّى "إلى كافة جوانب العملية التعليمية حتى يمكننا القول إن وثيقة الوقف كان بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسات التعليمية التي تضم الأسس التربوية التعليمية والشروط التي يجب أن تتوافق في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة وما إلى ذلك من التنظيمات الإدارية والمالية" (خ).

ولم يقتصر الوقف على عملية التعليم وبناء المدارس وتوفير المدرسين فقط، بل تعداه إلى مراعاة احتياجات الطلاب من كتب وحبر وورق بل وخبز وأضحية ولباس، يحدثنا التاريخ أن أبا صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن النيسابوري كان يقوم برعایة الودائع من كتب الحديث، وكان يقوم بصيانتها، ويتعهد بحفظها، كما يتولى أوقاف الحدثين من الخبر والكافر وغير ذلك، ويقوم بتفریقها عليهم وإصالها إليهم (بر). وفي وقف المدرسة العمريّة في القوس "وقف للخبز يفرق فيها كل يوم ألف رغيف أو نحوه ووقف للأطعمة اليومية وهي أطعمة رتيبة ومنها الجريشة في الشتاء، ولها أضحية في العيد الكبير ولها وقف حلوى في

(خ) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر: 240.

(بر) معجم الأدباء: 224/3، 225.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

المواسم وزبيب وقضامة كل ليلة جمعة، وحلويات أخرى في الليالي الفضيلة من رمضان، ولها وقف على قمchan كل سنة لكل نازل واطباق وأباريق للوضوء وسخانة يسخن فيها الماء، ووقف من الزيت للإضاءة".^(خ)

ويعلق الدكتور يحيى الساعاتي على هذين الخبرين قائلاً^(بر): "ويتبين من هذين الخبرين السابقين أن الوقف التعليمي تجاوز توفير المبنى والمدارس وإتاحة الكتب وتخصيص نفقات للطلاب، إلى توفير الخبر والورق والطعام والكساء وغير ذلك مما يوفر لطلبة العلم كل سبل الراحة حتى يتمكنوا من التحصيل دون أي عائق مادي".

ومهما يكن من أمر، فإن نظرة على عدد المدارس في بعض المدن الإسلامية الكبرى مثل دمشق أو القدس أو بغداد تكفي برهاناً لإثبات وفرة أعداد المدارس التي أسست من أوقاف أهل الخير، ولعل الثبت الذي ساقه تقي الدين الفاسي في كتابه "العقد الشمين" يكفي مثالاً على هذا الإدعاء وفي هذا الثبت:

"أما المدارس الموقوفة: فإحدى عشرة، منها: مدرسة الملك فيصل صاحب اليمين، ومنها مدرسة بدار العجلة القديمة على يسار الداخل إلى

(خ) آل قدامة والصالحة: حلويات كلية الآداب بالكويت سنة 14 ص76.

(بر) الوقف والمجتمع: 37.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

المسجد الحرام، ومنها مدرسة الأمير الزنجيلي، ومنها مدرسة الملك المنصور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن، ومنها مدرسة طاب الزمان الحبسية عتيقة المستضيء العباسي، ومنها مدرسة الملك المنصور غيث الدين بن المظفر أعظم شاه صاحب بنجالة من بلاد الهند على فقهاء المذاهب الأربعة، ومنها مدرسة أبي علي بن أبي زكري، ومنها: مدرسة الأرسو في العفيف عبد الله بن محمد، ومنها: مدرسة ابن الحداد المهدوي، وتعرف بمدرسة الأدارسة، ومنها مدرسة النهاوندي^(خ).

أما خير مثالٍ نسوقه لإظهار ضخامة بعض الأوقاف الموقوفة على المدارس فهو وقفية المدرسة المستنصرية التي تكامل بناؤها سنة 163هـ بأمر من الخليفة المستنصر بالله إذ يذكر هلال معروف خبراً عن هذه الوقفية، يقول^(بر): «قلت: ثم رأيت نسخة كتاب وقفها في خمسة كراريس، والوقف عليها عدة رباع، وحوانيت بغداد وعدة قرى كبار وصغار ما قيمته تسعمائة ألف دينار فيما يحال إلىّ. ولا أعلم وقفها الدنيا يقارب وقفها أصلاً سوى أوقاف جامع دمشق، وقد يكون وقفها أوسع، فمن وقفها بمعاملة ذُجَيل قصر سُمِّيَّة، وهي ثلاثة آلاف وسبعمائة جريب، والحمد وضياعه كلها ومساحته ستة آلاف وأربعمائة

(خ) العقد الشمين: 117/1، 118.

(بر) انظر / تاريخ علماء المستنصرية: 2/403، 404.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

جريب، والأَجْمَة كلهَا، وَهِيَ خَمْسَةَ آلَافَ جَرِيبٍ وَخَمْسُونَ، وَمِنْ نَهْرِ
الْمَلْكِ، بِرْفُطًا كلهَا، وَهِيَ خَمْسَةَ آلَافَ وَخَمْسَمِائَةَ جَرِيبٍ، وَنَاحِيَةُ
الدُورِ، وَهِيَ ثَلَاثَةَ آلَافَ وَتِسْعَمِائَةَ وَتِسْعَوْبَ جَرِيبًا، وَقُوسِنِيَّا، وَهِيَ
ثَلَاثَةَ آلَافَ جَرِيبٍ وَنِيفَ.

وَقَرْيَةُ مَرِيدِ كلهَا، وَهِيَ أَرْبَعَةَ آلَافَ جَرِيبٍ وَمِائَةَ وَثَمَانُونَ جَرِيبً.

وَمِنْ ذَلِكَ نَاحِيَةُ طَسْمَنِيَّ، وَمَسَاحَتُهَا ثَانَيَةَ آلَافَ وَمِائَةَ جَرِيبٍ وَمِنْ ذَلِكَ
شَشْتَانِيَّ، وَهِيَ ثَلَاثَةَ آلَافَ جَرِيبٍ وَمِائَةَ.

وَنَاحِيَةُ الْأَرْحَا وَهِيَ أَرْبَعَةَ آلَافَ جَرِيبٍ، وَمِنْ ذَلِكَ نَاحِيَةُ
الْبَسْطَامِيَّةِ، وَهِيَ أَرْبَعَةَ آلَافَ جَرِيبٍ، وَالْفَرَاشَةُ أَلْفُ جَرِيبٍ.

وَقَرْيَةُ حَدِ النَّهَرِيْنِ وَهِيَ أَلْفُ جَرِيبٍ وَمِئَتَانِيَّا جَرِيبٍ. وَالْخَطَابِيَّةُ، وَهِيَ
أَرْبَعَةَ آلَافَ وَثَمَانِيَّةَ جَرِيبٍ وَنَاحِيَةُ بَزِيْدِيَّ، وَهِيَ سَتَةَ آلَافَ وَخَمْسَمِائَةَ
جَرِيبٍ. وَمِنْ ذَلِكَ السَّدَادِيَّةِ وَمَبْلَغُهَا عَشْرُونَ أَلْفَ جَرِيبٍ وَمِئَتَانِيَّا
وَخَمْسُونَ جَرِيبًا.

وَحَمْزَ نَقِيَّة؟، وَهُوَ أَرْبَعَةَ آلَافَ جَرِيبٍ وَثَمَانِيَّةَ وَمِنْ ذَلِكَ قَرْبَاطِيَا،
سَتَةَ آلَافَ جَرِيبٍ وَمِنْ ذَلِكَ حَمْزَ خَرَاسَان؟، وَهِيَ خَمْسَةَ آلَافَ جَرِيبٍ
وَمِئَتَانِيَّا جَرِيبٍ. وَمِنْ أَعْمَالِ نَهْرِ عِيسَى قَرْيَةُ الْحَدِيدَةُ، وَهِيَ أَلْفًا جَرِيبٍ
وَسَمِائَةَ جَرِيبٍ.

وَالْقَطْنَةُ، وَهِيَ سَتَةَ آلَافَ وَأَرْبَعِمِائَةَ جَرِيبٍ. وَقَرْيَةُ الْمَنْسَلِ، وَهِيَ

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

خمسة آلاف وخمسمائة جريب. ومتن، وهي ألفان وخمسمائة جريب.
وقرية الدينارية، وهي أربعة آلاف وستمائة جريب والناصرية
كلها، وهي تسعه عشر ألف جريب.

فالمرتبة من أوقاف هذه المدرسة على ما بلغني نحو من خمسمائة نفر:
المدرسون فمن دونهم، وبلغني أن تبن الوقف يكفي الجماعة، ويقيي مغلّ
هذه القرى مع كرا الرابع فضلة، فكذا فليكن البر والإلا فلا، وحدثني الثقة:
أن ارتفاع وقفها بلغ في بعض السنين وجاء نيفاً وبسبعين ألف مثقال ذهباً".

وي يكن لنا أن نضيف نبذة عن ما عرف بدور العلم ونلقي الضوء
على المدارس أو الجواجم التي تحولت إلى جامعات بسبب ما حبس عليها
من أوقاف لكن حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ثالثاً: المستشفيات (البيمارستانات):

عني ولاة الأمور من الخلفاء والسلطانين والملوك والأمراء بنشر
الطب وثقافة بترجمة ما خلفته الأمم السابقة من هذا الفن أو بتأسيس
المستشفيات والمعاهد الطبية لتخريج الأطباء ولعلاج الناس ووقفوا على
إنشائها أوقافاً كثيرة لا تقل عن أوقافهم على المدارس ، وقد عرف
التعليم الإسلامي نوعية من الكليات الطبية هما:

١ - البيمارستانات أو الكلية العملية للطب.

2 – المدارس الطبية النظرية. (خ)

أولاً : البيمارستانات :

البيمارستان في المصطلح الإسلامي هو المستشفى في لغتنا اليوم، وتعتبر البيمارستانات الإسلامية بمثابة الكليات الطبية العملية الحديثة (الإكلينيكية)، فقد أدرك المسلمون مدى ما تمتاز به هذه البيمارستانات من صلاحية لتعليم الطب حيث الحالات المرضية ماثلة أمام أعين المتعلمين والأدوية والعلاجات قريبة متوافرة، واتخذوا منها إلى جانب قيامها بمعالجة المرضى كليات طب أدت لهذا العلم أجل الخدمات، وإن لها على الإنسانية والعلوم الطبية الحديثة فضلاً كبيراً. (بر)

ويرى المقريزي أن أول من بنى البيمارستان في الإسلام ودار المرضى هو الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي سنة 88هـ، وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق، وأمر بحبس المجندين لئلا يخرجوا، وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق". (تر)

ومن أشهر البيمارستانات التي سجلها لنا التاريخ : ماستان ابن طولون المعروف باليمارستان العتيق، بناءً أحمد بن طولون سنة

(خ) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى: 118.

(بر) انظر تاريخ الجامعات الإسلامية: 118.

(تر) الموعظ والاعتبار: 258/4، 259.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

259هـ^(خ)، ولما فرغ منه حبس عليه دار الديوان ودوره في الأساقفة والقيسارية وسوق الرقيق وعمل حمامين للمارستان أحدهما للرجال، والأخر للنساء حبسهما على المارستان وغيره، وشرط أنه إذا جيء بالعليل تنزع ثيابه وتحفظ عند أمين المارستان ثم يلبس ثياباً، ويفرش له، ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبراً^(بر)، ومن البيمارستانات نذكر أسماء بعضٍ على عجالة: البيمارستان المقتدرى والبيمارستان العضدي ببغداد والمارستان الأسفل الذي بناه كافور الأخشيدى والبيمارستان المنصوري بمكة المكرمة والبيمارستان المنصوري الكبير بالقاهرة، وهذا الأخير سناخذه نموذجاً يمثل أعظم تطور ووصل إليه المستشفى (المارستان) في الإسلام، وهذا المستشفى عرف أيضاً بدار الشفاء وبمارستان قلاوون: السلطان الذي أنشأه، يقول المقريزي في حوادث سنة 683هـ مرجحاً على ذكر هذا البيمارستان^(تر): "وكان سبب بنائه أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزة الروم في أيام الظاهر بيبرس سنة خمس وسبعين وستمائة أصابه بدمشق قولنج عظيم فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبراً وركب حتى شاهد المارستان

(خ) الوقف والمجتمع: 51.

(بر) المواعظ والاعتبار: 406/2، 407.

(تر) نفس المصدر والجزء: 406، 407.

فأعجب به ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مارستان فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك فوق الاختيار على الدار القبطية وعوض أهلها عنها قصر الزمرد، وولي الأمير عز الدين سنجر الشجاعي أمر عمارته فأبقى القاعة حالها وعملها مارستان وهي ذات إيوانات أربعة بكل إيوان شاذروان، وبدور قاعتها فسقية يصير إليها من الشاذرونات وأنات الماء، واتفق أن بعض الفعلة كان يحفر في أساس المدرسة المنصورية فوجد حق أشنان من نحاس ووجد رفيقه قممقًا نحاسيًا محتوماً برصاص فأحضر ذلك إلى الشجاعي فإذا في الحقّ تصووص ماسٍ وياقوت وبلخش ولؤلؤ ناصع يدهش الأ بصار، ووجد في القممق ذهباً كان جملة ذلك ما غرم على العمارة فحمله إلى أسعد الدين كوهيا الناصري العدل فرفعه إلى السلطان، ولما نجزت العمارة وقف عليها الملك المنصور من الأملاك بدبار مصر وغيرها ما يقارب ألف درهم في كل سنة، ورتب مصارف المارستان والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام ثم استدعى قدحاً من شراب المارستان وشربه، وقال: وقف هذا على مثلي فمن دوني وجعلته وقفًا على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير والحرّ والعبد الذكور والإثاث، ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض، وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى، وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرّة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها في المرض،

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعًا فجعل أواوين المارستان الأربع للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدى وقاعة للجراحى وقاعة لمن به إسهال وقاعة للنساء ومكانا للبرودين ينقسم بقسمين: قسم للرجال وقسم للنساء، وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن، وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها، ومواضع يخزن فيها الحوافل، وجعل مكانا يفرق فيه الأشربة والأدوية ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب، ولم يمحص عدة المرضى بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غني وفقير ولاحدد مدة لإقامة المريض به بل يرتب منه من هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه، ووكل الأمير عز الدين أيك الأفروم الصالحي أمير جندار في وقف ما عينه من الموضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم وجعل النظر لنفسه أيام حياته ثم من بعده لأولاده ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي".

ويعقب الدكتور يحيى ساعاتي على هذه الوثيقة قائلاً^(خ): "ونستقي من النص ما كان عليه هذا المستشفى من تنظيم باهر وما وفره له واقفه من إمكانات لخدمة المرضى وراحتهم وعلاجهم وكيف أنه خصص فيه مكانا يلقى فيه رئيس الأطباء دروساً في الطب مما يعني اهتمامه بتوسيع

(خ) الوقف والمجتمع: 54.

مدارك الأطباء العاملين فيه وتزويدهم بأحدث المعلومات، ولعل الأهم من ذلك كله أنه جعله للناس كافة دون فئة بعينها".

ثانياً: المدارس الطبية والمعاهد:

بالإضافة إلى المستشفيات والمدارس هناك أنواع من المدارس أو المعاهد يدرس فيها الطب وعلومه، بل والمساجد التي كانت تنتظم كافة العلوم الشرعية وغيرها والدينية الدنيوية ولا تتعارض مع تعاليم الدين السمح ومبادئه وكلياته، فهذا الطبيب عمرو وبن منصور البهادرى يدرس الطب في المسجد، فقد كان له مجلس لتدريس الطب في جامع ابن طولون^(خ)، وهذا عبد اللطيف البغدادي يحدث أنه كان خلال إقامته بمصر قادماً إليها سنة 582هـ يقرئ الناس الطب وغيره بالجامع الأزهر من أول النهار ووسطه حتى إذا جاء الليل حضر للإقراء قوم آخرون، وذهب هو للقراءة والمطالعة مع نفسه^(بر)، كما كان محمد بن عبد الله المصري المتوفي سنة 772هـ أستاذًا للطب بالجامع الطولوني^(تر).

ظلت دراسة الطب محصورة بين المساجد والدورس الخاصة "حتى ظهرت حركة المدارس، وكان لها صداتها في تطور تدريس الطب،

(خ) تاريخ البيمارستانات: 161.

(بر) مصر الإسلامية: 97.

(تر) الدرر الكامنة: 3/475.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

فظهرت في الميدان مدارس طيبة على نظام المدارس الفقهية والحديثية..، وكان منشأ هذا النوع من المدارس الطبية بلاد الشام، ولا نكاد نجد لها وجوداً خارج الديار الشامية" (خ)

وحسينا أن النعيمي قد خصص فصلاً في كتابة "الدرس" للحديث عن مدارس الطب بها، ولعل أهم مدرسة طبيه نظرية عرفتها بلاد الشام هي : المدرسة الدخوارية بدمشق : ومؤسسها : الشيخ الإمام العالم مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم بن على بن حامد المعروف بالدخوار مولده ومنشأه بدمشق ، كان كحالاً وكان أستاذًا بالبيمارستان الكبير النوري وتتلذذ عليه كثير من الأطباء بدمشق ، ثم وقف داره وجعلها مدرسة للطب ووقف عليها ضياعاً وعدة أماكن ، ومن تولوا تدريس الطب في هذه المدرسة (أو الكلية الطبية) : الحكيم شرف الدين الرحبي ، درس بها صناعة الطب والحكيم بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك وقد كتب له منشور برئاسته على سائر الحكماء في صناعة الطب وتعيينه مدرساً للطب في المدرسة الدخوارية ، وعماد الدين الدنيسي و محمد بن عبد الرحيم بن مسلمة كمال الدين الطبيب ، ومنهم أيضاً عز الدين بن السويدي ، أتقن العربية والشعر والطب وخدم بالبيمارستان الكبير

(خ) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى: 126.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

النوري ، وكان مدرساً بالدخوارية. (٤)

ومن هذه النصوص والأخبار نستطيع أن نتبين أموراً منها:

1 - أن المستشفيات ليست محلاً للعلاج فقط بل هي للعلاج

وللإيواء والتدرис وللبحث العلمي.

2 - أن بعض الأطباء الذين يعملون بالمارستانات يقومون

بنفس الوقت بالتدرис في المدارس والكليات الطبية ، أي أن

هذه المستشفيات محل التطبيق ، فالطبيب يدرس في الكلية

ويمارس الطب العملي في المستشفى مثل أي طبيب في يومنا

هذا.

3 - أن هذه المستشفيات والكليات تعدُّ مراكز للبحوث النظرية

والتطبيقية وخصوصاً فيما يتعلق بالطب والحكمة ، ولعل

الخبر الأنف ذكره ، وهو أن كبار الأطباء في المستشفى

المنصوري يعقد دروساً في المستشفى ويناقش تلك الدروس

مع زملائه وطلابه دليل واضح على ذلك.

4 - أن هذه المرافق الطبية تعتمد في تمويلها الضخم على ما حبس

(٤) خطوط المدارس بأخبار المدارس نقلًا عن أحمد عيسى في كتابه تاريخ
البيمارستانات: 40، 41.

_____ تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها _____

لها من أوقاف، أو بمعنى آخر: أننا نتبين أهمية الوقف في إقامة هذه المؤسسات التعليمية والطبية والاجتماعية، وأنه لو لا الوقف وما حبس لها من أوقاف لما تهياً لها أن تقوم أو أن تستمر طويلاً ويمكن أن يضاف إلى ذلك كل وقف استهدف صحة المواطن ورعايته وتوفير الدواء له من طب وصيدلة وكيمياء ونباتات وصيدليات ومعاهد بحث في الطب والصيدلة وأعمال سريرية ونقاش يديره المختصون مع بعضهم تارة ومع تلاميذهم تارة أخرى فهذا ابن جبير يذكر عن مصر حينما زارها أن المدارس الطبية كانت منتشرة في مصر في زمانه، وكانت تلحق بها مستشفيات تعليمية مع حمامات لنظافة المرضى والطلبة، وكان الطلبة فيها يتمنون على الحالات السريرية تحت إشراف أساتذتهم (١٤).

وقد حظيت بعض المدارس بأطباء مهرة كما هو الحال مع المستنصرية أغروا الطب وميادينه بجوثهم ومؤلفاتهم مثل شمس الدين بن الصباغ الذي وصف بأنه عالم في الطب ماهر في صناعته، له فيه

(١٤) رحلة ابن جبير: 10.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

تصانيف^(خ)، ومنهم سنجر الطيب الذي وصفه ابن الفوطي بأنه كان مشغولاً بتدريس الطب والتأليف فيه، وقد شرع في تصنيف كتاب مفيد يشتمل على أقسام الطب العلمي والعملي^(بر)، ومنهم ابن الكتبى الشافعى الذى لازم الطب فى المستنصرية وصنف، ومن مؤلفاته "مala يسع الطبيب جهله" في مجلد^(تر).

ويظهر أنه كان في المستشفيات الكبرى قاعات (صُفة) للمحاضرات يلقي بها الأساتذة محاضراتهم والطلبة معهم كتبهم وآلاتهم وتجري المناقشات الطبية ثم يصطحب الأساتذة تلامذته للمرور على المرضى لمعالجتهم ولتمرير الطلاب على الحالات العملية^(بر)، يقول ابن أبي أصيوعة^(سم): "كنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدينى والحكيم عمرو وان من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى، وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض

(خ) منتخب المختار: 164.

(بر) تلخيص مجمع الآداب في معجم الأسماء على الألقاب: 307/5.

(تر) تاريخ علماء المستنصرية: 1/281.

(بر) نفس المصدر والجزء: 158.

(سم) عيون الأنباء في طبقات الأطباء: 732.

ومداواتها".

وبجانب هذا فقد حبست أوقاف معينة على تعضيد تأليف الكتب في الطب والصيدلة والأدوية مما مكن أساتذة الطب أن يقوموا بالتأليف والجمع والبحث، ومن أمثلة ذلك: "كتاب البيمارستانات" لزاهد العلامة الفارقي عميد أحد المستشفيات في القرن الخامس الهجري، وكتاب "مقالة أمينة في الأدوية البيمارستانية" لابن التلميذ، و"الدستور البيمارستاني" لابن أبي عبيان، وكتاب "صفات البيمارستان" للرازي (خ). وهذا بن البيطار صاحب علم النبات والأدوية يؤلف كتابه المشهور "الأقرباذين" الذي اشتمل على 1400 دواء من خلال تنقله في ديار الإسلام وبقائه ضيفاً على مستشفياتها ومدارس الطب فيها، وعاش على أموال الوقف في رحلاته (بر).

ولا أرى بأساً أن أختتم هذا الفصل بكلام جميل للدكتور عبد الوهاب أبو سليمان وهو يتحدث عن مقاصد الوقف إذ يقول (تر): "مثل بناء المصحات النفسية، أو تمويل البحوث التي تقضي على بعض الأخطار من الأمراض الجسمية كالإيدز، أو تمويل البحوث والدراسات

(خ) عيون الأنباء: 161، 259 وانظر الدور الاجتماعي للوقف: 289.

(بر) العرب والحضارة الأوربية: 275.

(تر) الوقف: مفهومه ومقاصده: 14.

وتنشيط حركة التأليف فيها".

رابعاً: المكتبات:

انتشرت المكتبات الموقوفة في العالم الإسلامي انتشاراً لم يُرَ مثلاً من قبل، فلا تكاد تجد مسجداً أو مدرسة أو مستشفى أو داراً من دور العلم إلا موقوفاً عليها من الكتب ما هو ضروري، لأن الواقف كان يدرك أن كل هذه المؤسسات العلمية أو البحثية لا يمكن أن تؤدي عملها بالشكل المطلوب إلا بوجود الكتاب وهناك مكتبات خاصة مستقلة لا ترتبط بأي مؤسسة تعليمية وإنما تشبه المكتبات العامة في يومنا هذا، ولعل مرد ذلك إلى شرط الواقف أو اجتهاد ناظر هذا الوقف " فمن الناس من يوقف كتبه على المسلمين عامة دون تعين فتوبيخ كتبه في خزانة الجامع، ومنهم من يخصص فيقول: أوقفتها على المكان الفلاني أو بالبلدة الفلانية... الخ، ومنهم من يترك استعمالها حرّاً على حين يضع آخرهن شروطاً لاستعمالها وإعادتها كما فعل القاضي ابن حيان الذي منع إعادة كتبه خارج المبني، وبعضهم وقف كتبه على أهل العلم كما فعل ابن الخشاب" (٤).

ولا شك أن نجد تاريخياً دقيناً لبداية الاتجاه لهذا النوع من الوقف بيد

(٤) المكتبات في الإسلام: 1772 و انظر: الوقف والمجتمع: 40.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

أَنْتَ نُسْطَعِيْعُ أَنْ نَتَلَمَّسُ ذَلِكَ مِنْ خَلَالِ اسْتَقْرَاءِ بَعْضِ الْأَخْبَارِ الَّتِي تَظَهَّرُ لَنَا أَنَّ الْمَكْتَبَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا عَبْدُ الْكَرِيمِ الْجَمْحَىْ فِي مَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ الْهَجْرِيِّ أَوَّلَ مَكْتَبَةِ عَامَّةٍ تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِمَرْتَادِيهَا مِنَ الْقَرَاءِ وَالْبَاحِثِينَ عَنِ الْمَعْلُومَاتِ وَالتَّسْلِيَّةِ الْبَرِّيَّةِ، ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى الْكُتُبِ وَحْدَهَا بَلْ عَلَى بَعْضِ وَسَائِلِ التَّسْلِيَّةِ وَالْتَّرْوِيَّعِ كَالنَّرْدِ وَالشَّطَرْنَجِ فَقَدْ أَوْرَدَ الْمَهْتَمِمُونَ بِدِرَاسَةِ تَحْدِيدِ الْبَدَائِيَّاتِ لِنَشَوَّهِ الْمَكْتَبَاتِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ هَذَا الْخَبَرُ: "أَخْبَرْنِي الْحَرْمَىْ قَالَ حَدَّثَنَا الزَّبِيرُ، قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَوْ الْجَمْحَىْ قَالَ: كَانَ عَبْدُ الْحَكِيمِ بْنَ عُمَرَوْ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ الْجَمْحَىْ قَدْ اتَّخَذَ بَيْتًا فَجَعَلَ فِيهِ شَطَرْنَجَاتٍ وَنَرْدَاتٍ وَقَرْقَاتٍ وَدَفَّاتِرٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ، وَجَعَلَ فِي الْجَدَارِ أَوْتَادًا فَمَنْ جَاءَ عَلَّقَ ثِيَابَهُ عَلَى وَتَدِّ مِنْهَا ثُمَّ جَرَّ دَفْتَرًا فَقَرَأَهُ أَوْ بَعْضُ مَا يَلْعَبُ بِهِ فَلَعِبَ بِهِ مَعَ بَعْضِهِمْ" (خ).

أَمَّا انتشار خزائن الكتب الموقوفة فيرى الدكتور يحيى ساعاتي أن القرن الرابع الهجري هو البداية الظاهرة لهذا الانتشار لدرجة أننا "قلما نجد مدينة تخلو من كتب موقوفة" (بر).

(خ) الأغاني: 51/4.

(بر) الوقف وبنية المكتبة العربية: 33.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

حتى أصبح الكتاب متاحاً لأي قارئ يجده متى ما يشاء لدرجة أن استغنى بعض العلماء من اقتناء الكتب في بيته وشرائها، ويستشهد على ذلك بأن أبا حيان النحوي كان يعيّب على أولئك الذين يشترون الكتب بينما هي متاحة في الخزائن العامة ويقول قوله المشهورة: (خ) "الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أني كتاب اردته استعرته من خزائن الأوقاف" ويلاحظ هنا كلمة "الأوقاف" ولم يقل الكتب، وبهذه الكلمة تدليل على كثرة الخزائن الموقوفة.

هذا ويضرب أكثر المؤرخين للمكتبات الإسلامية الموقوفة مثلاً على ضخامة عدد الكتب الموقوفة وشيوعها بما نقل عن ياقوت الحموي في حديثه عن مدينة مرو الشاهجان وكثرة خزائنها إذ يقول (بر): "لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة، منها خزانتان في الجامع إحداهما يقال له العزيزية، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني، أو عتيق بن أبي بكر وكان فقاعياً للسلطان سنجر، وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو... وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها، والأخرى يقال لها الكمالية..، ومنها خزانة شرف الملك أحد

(خ) نفح الطيب: 543/2.
(بر) معجم البلدان: 36/8.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

الوزراء المتأخرین بھا، والخزائن الخاتونیة في مدرستھا، والضمیریة في خانکاه هناك، وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد، وأکثره بغير رهن".

وهذا النص وحده يکفي أن يقوم شاهداً على وجود أنواع المكتبات في ذلك العصر، بيد أن هذا لا یمنع إيراد ذكر من تلك المكتبات على سبيل الاختصار فمنها: دار الحکمة في القاهرة ودور العلم في أماكن شتى وبيت الكتب وخزانة الكتب ودار الكتب ودار العدة والخزانة العلمية، وهي تکاد تكون مسميات لاسم واحد هو المکتبة، ولعل لكل بلد تسمیته أو لكل واقف مصطلحه^(خ).

ولعل أهم ما یميز هذه المكتبات أنها ليست دوراً للقراءة فقط، وإنما هي – أو بعضها – مجالس علم ومناظرة وبحث ومحاضرة یشهد على ذلك إلھاق مكتبات في بعض مرافق العلم والتعليم والخدمات فقد كان ملحقاً في بیمارستان أحمد بن طولون في مصر خزانة كتب بها ما یزيد على مائة ألف مجلد^(بر)، كما أن السلطان المريني انشأ بالقرروین خزانة كتب أودع فيها الكثير من "الكتب المحتوية على أنواع من علوم الأبدان والأديان

(خ) انظر مزيداً من التفصیل في: الوقف وبنیته المکتبة العریة: 34-56.
(بر) معجم الأدباء: 17/234.

واللسان والأذهان وغير ذلك من العلوم على اختلافها وتنوع ضرورتها وأجناسها" (خ).

ولعل دار العلم الموصلىة خير برهان على هذا الإدعاء، فقد أسسها أبو القاسم جعفر بن محمد الموصلى الفقىي الشافعى المتوفى سن 323هـ داراً للعلم فى بلده، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، وقفاً على كل طالب للعلم، لا يمنع أحداً من دخولها، وإذا جاءه غريب يطلب الأدب وكان معسراً أعطاه ورقةً وورقاً، وكان ابن حمدان يجلس فيها ويجتمع إليه الناس بالإضافة إلى تسييرها فيملى عليهم من شعره وشعر غيره، ثم ي ملي حكايات مستطابة، وطرفًا من الفقه، وما يتعلّق به (بر)، ويدرك المقرىزى وهو يتحدث عن الدار التي أنشأها الحاكم بأمر الله المسماة "دار الحكمة بالقاهرة" أنه "حصل في هذه الدار من الكتب التي أمر الحاكم بحملها إليها من سائر العلوم والأداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك.. وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الخبر والأقلام والورق

(خ) التعاشيب: 88.

(بر) معجم الأدباء لياقوت: 192/7.

== تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها ==

والمحابر" (خ).

ومن هذه النصوص نتبين أن هذه المكتبات الموقوفة لم تكن مجرد مكتبة للقراءة بل كانت مراكز للتعليم وللبحث العلمي وللمناقشة وأحياناً للترجمة كما هو الحال في "بيت الحكمة" الذي أنشأ في بغداد الذي وصفه محمد غنيمة بأنه "مجمع علمي للترجمة والبحث" (بر).

(خ) الخطط 334/2.

(بر) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى: 61.

دور البحث العلمي في الأوقاف

بعد أن تحدثنا عن دور الوقف في البحث العلمي عبر إسهامه في توسيع مرافقه من مسجد ومدرسة ودار علم وبيمارستان ومكتبة وغير ذلك فما الدور الذي يمكن أن يؤديه البحث العلمي في تنمية الوقف وتطويره ! !

لاشك أن الوقف سيفيد من البحث العلمي إن في عين الموقوف أو شرط الواقف أو في المحافظة على الوقف أو في تنمية الوقف، ولنرَ كل واحدة من هذه على حدة :

أولاً: عين الوقف:

ونقصد العين الموقوفة من عقار أو زرع أو مال أو غير ذلك ، وهنا فإن البحث العلمي من معرفة أحوال الناس المعيشية ، ورصد متطلباتهم والقيام ببعض العمليات الإحصائية ستكون مفيدة في هذا المجال ، خصوصاً إذا استصحبنا أن الواقف ينشد أكبر منفعة يمكن أن تحصل من وقفه ، فلو أراد الواقف مثلاً أن يوقف عقاراً أو زرعاً فإن عليه قبل أن يفعل ذلك أن يدرس قيمه هذا العقار أو الزرع ، وما مدى حاجة الناس إليه ، كما أنه من الأصلح للعين الموقوفة أن يضمن لها الاستمرار لطول

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

فترة ممكنته وإن لا ترتب على ذلك كسداد في العين الموقوفة أو إنتهاء لها وتلاشٍ، كما أن على الواقف أن يختار المكان الأصلح والأكثر حاجة لوقفه، وهذا لا يتأتى إلا بمعرفة أحوال العباد، فوقف على مسجد أو مدرسة إسلامية مثلاً في بلد إسلامي فقير كالهند أو في بلد المسلمين فيه أقلية كبعض بلدان أفريقيا أو أمريكا اللاتينية ربما يكون أصلح منه في بلد مساجده كثيرة ومدارسه تبنيها الدولة كالمملكة العربية السعودية.

ثانياً: شرط الواقف:

وأبسط شيء هنا هو أن الواقف يجب عليه أن يعرف بعض أحكام الوقف حتى لا يشترط شرطاً غير جائز شرعاً أو شرطاً جائراً؛ كذلك الدمشقي الذي جعل في شرط وقفه لمدرسة ما: ألا يدخلها يهودي ولا نصراني ولا حنفي، فحرمان الحنفي منها وقرنه باليهودي والنصراني لا شك أنه نقص في الفهم الشرعي للوقف وأحكامه، والبحث العلمي الشرعي في الوقف وأحكامه يفيد فيتجنب الوقوع في مثل هذا الشطط أو الزلل، كما أن البحث العلمي المناسب يساعد الواقف على تعين شروطه طبقاً لظروف معنية وملابسات لا تظهر إلا بعد التقصي والبحث العلمي ومعرفة الناس والمجتمع والأحكام الفقهية، لأن الواقف قد يأثم وهو لا يدرى من حيث يريد الأجر والثواب، فلو شرط شرطاً حراماً في

الإسلام لأثم، ولكن ذلك حوباً كبيراً، فلو وقف واقف وقفًا ما، وشرط أن ينفق ريع هذا الوقف على تقديم القرابين والذبائح لقبرٍ لكان آثماً من جهة، ولحرم المجتمع الإسلامي من منفعة هذا الوقف من جهة ثانية، ومثل ذلك لو أن واقفاً على مدرسة شرط أن يدرس فيها الرقص والموسيقى أو أن يختلط فيها الرجال والنساء.

ثالثاً: المحافظة على الوقف وصيانته:

وخصوصاً إذا كان الوقف من النوع الذي يحتاج إلى محافظة وصيانة كالعقار والمكتبات ونحو ذلك، وصيانة العقار لا شك أنها تحتاج إلى معرفة بالترميم والترقيع ونحو ذلك، وخصوصاً إذا كان العقار قدماً، ويحتاج إلى إدخال إصلاحات جديدة تناسب الزمن الذي نعيش فيه ومتطلباته. وإن العقار سيكسد ويتغطر ريعه ومردوده أو يضعف، ومثل ذلك يقال عن المكتبات فلا بد من تجليدها وترميمها إذا أصابتها بلل أو أكلتها عفة أو أرضه أو تقادم ورقها والأبحاث العلمية الجديدة في هذه التقنية تساعد على ذلك كما هو الحال في المراكز الثقافية المتقدمة التي تشتمل على مكتبات قديمة أو مخطوطات كالمتحف البريطاني ومكتبة الكونجرس الأمريكي ومركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية ومكتبات بعض الجامعات.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

رابعاً: تنمية الوقف:

وهذا يتطلب معرفة بالاستثمار وطرقه ومواكبة مستجداته، والبحوث الاقتصادية التي تعالج التنمية وطرق الاستثمار المشروع والبدائل المشمرة المنتجة إذا كان الوقف مما يرى أن من المصلحة صرفه في غير ما وضع له ، إذا رأى ذلك ناظر الوقف الذي يحسن به أن يكون من لديهم معرفة بأحوال الاستثمار وتقلبات الاقتصاد، حتى يضمن تحقيق أكبر قدر ممكن من الربح حتى يتمكن الوقف من الإنفاق على تحقيق أغراضه.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

التوصيات

نظراً لأن مؤسسة الأوقاف هي الإطار العام لتوليد الطاقة الإسلامية من جديد كما كانت قادحة لهذه الطاقة في القديم، حيث تتجدد في المجتمع الإسلامي أوقاف جديدة كما تتجدد الخلايا الحية في الكائن الحي مع إعطائهما بعدها الديني والثقافي أو الاجتماعي الذي يحتوي العصر الحديث بسائر أبعاده ومعطياته، فالأوقاف لعبت دوراً حيوياً في الحضارة الإسلامية إن لم تكن إحدى مكونات الحضارة الإسلامية وثقافتها، فهي تعبر عنها في إطارها الاجتماعي^(خ) فإني أقدم اقتراحًا بالتوصيات التالية :

أولاً:

الحث على أن توجه سائر إمكانات الأوقاف نحو خطة تنمية واحدة تأخذ باعتبارها سائر الجهات، حتى تتحقق للأوقاف قوتها في رحاب الحضارة الإسلامية، وتصبح "لغة احتواء لضروريات المجتمع ومؤسساته من معاهد ومدارس ومساجد وكليات"^(بر)

(خ) الوقف في الفكر الإسلامي: 38/1، 38.

(بر) نفس المصدر والجزء: 38.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

ومستشفيات، و بتعبير آخر: ضرورة العودة إلى الوقف ليكون طریقاً نحو بناء حركة علمية زاهرة، وهو ما يتطلب بث الوعي بين الأثرياء والعلماء بالتخاذل هذا الأسلوب ليكون مصدراً من مصادر العمل الخيري البناء للمجتمع^(خ)

ثانياً:

حيث وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف على العناية بالوثائق الوقافية وتصويرها وجمعها في مكان واحد.

ثالثاً:

إعطاء الوقف التعريف به مساحة كافية في وسائل الإعلام وخطب المساجد والمنتديات وعقد الندوات لذلك، وحيث الناس على التنافس فيه وتبين أحکامه والمصلحة التي تعود منه على المجتمع الإسلامي في مجالاته العلمية والاجتماعية والتكافلية كافة.

رابعاً:

حفظ القطاع الخاص في المملكة على الإسهام في أعمال الوقف الخيري بإنشاء صناديق استثمارية للشركات الكبرى يعود ريعها السنوي على تنمية مجالات الأوقاف، والقيام بتمويل مشروعات

(خ) الوقف وبنية المكتبة العربية: 192.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

استثمارية تسهم في تنمية الأوقاف ، والقيام بتمويل مشروعات

استثمارية تسهم في تنمية الأوقاف الخيرية^(خ)

خامساً:

إنشاء قاعدة معلومات عن الوقف في الجهة المختصة بوزارة الشئون

الإسلامية والأوقاف يتخصص فيها كل ماله علاقة بالوقف من كتب

ومخطوطات ورسائل جامعية ووثائق ودراسات ومقالات باللغة

العربية أو اللغات الأخرى^(بر).

سادساً:

الانتفاع من معطيات التقنية الحديثة في معالجة الوقف واستثماره

وترميمه.

سابعاً:

عقد الندوات الحولية في جهات متعددة من المملكة أو في خارجها

للتدars في كل ما يتعلق بالأوقاف دعماً واستثماراً وتنمية

ومعلومات.

ثاماً:

(خ) التوصيات الختامية لندوة المكتبات الوقفية: 6.

(بر) هذه التوصيات أنت ضمن توصيات الندوة السابقة الذكر: 3، 4.

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية :

ضرورة تأسيس منظمة إسلامية عالمية للوقف تقوم بالتنسيق وتبادل المعلومات وعقد اللقاءات.

تاسعاً:

تأسيس صندوق للمساعدات الاجتماعية من فائض أموال الوقف العام غير المشروط.

المصادر والمراجع

- (1) الأغاني : الأصفهاني ، القاهرة 1323هـ.
- (2) آل قدامة والصالحية : حوليات كلية الآداب الكويت سنة 14 أحکام الوقف على الذرية في الشريعة الإسلامية : محمد عبد الرحيم الخالدي ، مكة المكرمة ، 1416هـ.
- (3) أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية : محمد الكبيسي ، بغداد ، 1397هـ.
- (4) إخبار العلماء بأخبار الحكماء : الققطني ، ليتسك ، 1322هـ.
- (5) الأوقاف النبوية : عبد الله بن محمد الحجيلي ، وقائع ندوة المكتبات الوقفية ، المدينة المنورة ، 1420هـ.
- (6) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر : محمد أمين ، القاهرة ، 1980م.
- (7) تاريخ البيمارستانات : أحمد عيسى ، دمشق ، 1357هـ.
- (8) تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى : محمد عبد الرحمن غنيمة ، المغرب ، 1952م.
- (9) تاريخ علماء المستنصرية : ناجي معروف ، بغداد ، 1975م.
- (10) تحرير ألفاظ التنبيه : النووي ، تحقيق : عبد الغني الدفر ، دمشق ، 1408هـ.
- (11) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : المباركفورى ، القاهرة ، 1353هـ.
- (12) التعاشيب : عبد الله كنون ، تطوان المغرب.
- (13) تلخيص مجمع الآداب في معجم السماء على الألقاب ، ابن الفوطي ،

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

تحقيق: مصطفى جواد، دمشق 1962م.

(14) التمهيد: ابن عبدالبر، المغرب، 1394هـ.

(15) تهذيب الأسماء واللغات: النووي، القاهرة.

(16) التوصيات الختامية لندوة المكتبات الوقفية، المدينة المنورة، 1420هـ.

(17) حجة الله البالغة: الدھلوي، القاهرة.

(18) حکم الشريعة الإسلامية في الوقف الخيري والأهلي: بيان من العلماء، مكة المكرمة، 1346هـ.

(19) الخطط: المقرizi، القاهرة.

(20) الدارس بأخبار المدارس: النعيمي، تحقيق: جعفر الحسيني، دمشق، 1367هـ.

(21) الدرر الكامنة: ابن حجر العسقلاني، القاهرة.

(22) الدور الاجتماعي للوقف: عبد الملك السيد، ندوة تثمير ممتلكات الأوقاف، جدة، 1404هـ.

(23) رحلة ابن بطوطة: بيروت، 1326هـ.

(24) رحلة ابن جبير، تحقيق: حسين نصار، القاهرة، 1374هـ.

(25) روضة الأفهام: ابن غنام، بومباي، 1377هـ.

(26) سنن أبي داود، تحقيق: محى الدين عبد الحميد، القاهرة.

(27) سنن الترمذى، تحقيق: أحمد شاكر، القاهرة، 1357هـ.

(28) شرح النووي على صحيح مسلم: النووي، تحقيق: عصام الطباطبى، القاهرة، 1315هـ.

تسخير البحث العلمي في خدمة الأوقاف وتطويرها

- (29) شرح منح الجليل : عليش المالكي ، 1294هـ.
- (30) صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، 1374هـ.
- (31) العقد الشفهي : تقى الدين الفاسى ، القاهرة ، 1379هـ.
- (32) عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيبيعة ، بيروت.
- (33) الكافي : ابن عبد البر ، تحقيق : محمد الموريتاني ، الرياض ، 1398هـ.
- (34) المبسوط : السرخسي ، القاهرة ، 1324هـ.
- (35) مجلة الاقتصاد الإسلامي ، الجزء الرابع ، المجلد التاسع ، شوال ، 1335هـ.
- (36) المخلوي : ابن حزم ، تحقيق : أحمد شاكر ، القاهرة ، 1387هـ.
- (37) مسند الإمام أحمد دار صادر ، بيروت.
- (38) المصباح المنير : الفيومي ، القاهرة ، 1324هـ.
- (39) المسالك والممالك : ابن حوقل ، لبنان 1967هـ.
- (40) معجم الأدباء : ياقوت الحموي ، القاهرة ، 1357هـ.
- (41) معجم البلدان : ياقوت الحموي ، القاهرة ، 1324هـ.
- (42) المغني : ابن قدامة ، القاهرة والرياض ، دار الإفتاء.
- (43) المقدمات : ابن رشد ، بيروت ، 1408هـ.
- (44) المقنع : ابن قدامة ، القاهرة ، 1980م.
- (45) المكتبات في الإسلام : ماهر حمادة ، بيروت 1398هـ.
- (46) منتخب المختار : ابن رافع السلاوي ، ذيل تاريخ ابن النجار ، بغداد

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية

م 1957

- (47) الموعظ والاعتبار: المقريزي، القاهرة، 1326هـ.
- (48) نفح الطيب: المقربي، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1388هـ.
- (49) الوقف الأهلی: طلال بافیقه، جدة، 1419هـ.
- (50) الوقف وآثاره في الإسلام: محمد الطاهر بن عاشور، مجلة الهدایة، 4 شوال 1355هـ.
- (51) الوقف وبنية المكتبة العربية: يحيى جنيد الساعاتي، الرياض، 1416هـ.
- (52) الوقف مفهومه مقاصده: أحمد عبد الجبار الشعبي، ندوة المكتبات الوقفية، المدينة المنورة، 1420هـ.
- (53) الوقف : مفهومه ومقاصده: عبد الوهاب أبو سليمان، ندوة المكتبات الوقفية، المدينة المنورة، 1420هـ.
- (54) الوقف وبنية المجتمع: يحيى جنيد ساعاتي، الرياض، 1997م.
- (55) الوقف في الفكر الإسلامي: عبد العزيز بن عبد الله، المغرب، 1416هـ.
- (56) الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي : وهبة الزحيلي ، دمشق، 1407هـ.



صفحة رقم (526)

فاضيه

توضع في ظهر الصفحة السابقة

ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية